﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ٢٣ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾

[محمّد ﷺ: 22 - 24]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

مفارقةُ الجهاد في سبيل الرَّحمن مقارفةٌ للقتال في سبيل الشَّيطان

لمّا أخبرت الآيات السّابقة تَطَلُّع المؤمنين إلى الإذن بالجهاد وقتال الأعداء، وأنَّ فريقًا منهم كانوا ضعاف الإيمان أو منافقين، وأنَّهم لو صدقوا اللّه؛ لكان خيرًا لهم؛ ناسب بيان ما سيُمسي عليه حالُهم إن تولَّوا، وأدبروا عن الطّاعة والجهاد في سبيل اللّه تعالى، وهو الإفساد في الأرض وتقطيع الأرحام؛ لأنَّ ما هم عليه قبل نزول الإسلام ومجيء الجهاد هو فساد وإفسادٌ في الأرض، فإن لم يستجيبوا لأمرِ اللّه تعالى والجهاد لإصلاح الأرض؛ فإنَّهم سيستجيبون لأمر الشَّيطان، فسيُفسدون في الأرض.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ﴾: القَطْعُ: إبانةُ بَعْضِ أجزاء الجِرْم مِن بعضٍ فَصلًا، قَطَعَه يَقْطَعُه قَطْعًا وقَطيعةً وقُطوعًا، والقَطْعُ: مَصدَرُ قَطَعتُ الحبلَ قَطْعًا فانقَطَع، وقَطَعَ رَحِمَه قَطْعًا وقَطيعةً، وقَطَّعَها: عَقَّها، ولَم يَصِلْها، والاسمُ القَطيعةُ، ورَجُلٌ قُطَعَةٌ وقُطَعٌ ومِقْطَعٌ وقَطّاعٌ: يَقْطَعُ رَحِمَه، وفي حَديثِ صِلَةِ الرَّحِم: «هَذا مَقامُ العائِذِ بِكَ مِنَ القَطيعَةِ»، والقَطيعَةُ: الهِجْرانُ والصَّدُّ، وهيَ فَعيلَةٌ مِنَ القَطعِ، ويُريدُ به تَرْكَ البرِّ والإحسان إلى الأهل والأقارب، وهيَ ضِدُّ صِلَة الرَّحِم، وقَولُهُ تَعالَى: ﴿أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾، أي: تعودوا إلى أمر الجاهِليَّةِ، فَتُفْسِدوا في الأرض وتَئِدوا البناتِ،

وقيلَ: تُقَطِّعوا أرْحامَكُم: تَقْتُلُ قُرَيْشٌ بَني هاشِم وبَنو هاشِم قُرَيْشًا، ورَحِمٌ قَطعاءُ بَيْني وبَيْنَكَ؛ إذا لَم توصَلْ[1]، فقوله تعالى: ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾، أي: تفسدوا علاقات القرابات، الَّتي من جهة الأمَّهات، ونصَّ عليها؛ لأنَّها تكون بين النّاس أقوى.

2) ﴿أَرۡحَامَكُمۡ﴾: (رحم) أصل واحد يدلُّ على الرِّقَّة والعطف والرَّأفة، يقال مِن ذلك: رحِمه يَرحمُه؛ إذا رقَّ له، وتعطَّف عليه، والرُّحْم والمرحمة والرَّحمة بمعنى، والرَّحِم: عَلاقة القرابة، ثم سُمّيت رَحِمُ الأنثى رحِمًا مِن هذا؛ لأنَّ منها ما يكون ما يُرحم، ويُرقُّ له مِن ولَدٍ[2]، فمعنى ﴿أَرۡحَامَكُمۡ﴾ أي: ذوو قراباتكم من جهة الرَّحِم.

3) ﴿فَأَصَمَّهُمۡ﴾: الصَّمَمُ: ذَهابُ السَّمعِ، والاكتِنازُ في جَوْفِ القَنا، والصَّلابةُ في الحَجَر، والشِّدَّةُ في الأمر، وفتنة صمّاء، ويُقال: صَمامِ صَمام، يُحمَل على معنَيين: على معنى تصامّوا، واسكُتوا، وعَلى معنى احمِلوا على العَدو، والتَّصميمُ: المُضيُّ في كلِّ أمرٍ[3]، "وشُبِّه بالأصمِّ مَن لا يُصغي إلى الحقِّ، ولا يقبله، فقال تعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ [البقرة: 18]، ويشبِّه من لا صوت له به"[4].

فمعنى ﴿فَأَصَمَّهُمۡ﴾: حرمهم نعمة السَّمع المفضي إلى الإيمان بالحقِّ، وختم على أسماعهم، فلا يَنفذ الهُدى إلى نفوسهم.

4) ﴿وَأَعۡمَىٰٓ﴾: العَمَى: ذهاب البَصَر كُلِّه، عَميَ عَمًى واعمايَّ وتَعَمَّى في معنى عَميَ، وأعماه وعَمّاهُ: صيَّرَه أعْمَى، والعَمَى ذهاب نظر القلب، وقوله تَعالَى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ ٢١﴾ [فاطر: 19 - 21]، قالَ الزَّجاج: هَذا مَثَلٌ ضَرَبَه الله تعالى للمُؤْمِنين والكافرين، والمَعْنى: وما يَستَوي الأعْمَى عَن الحقِّ، وهوَ الكافِر، والبصير وهوَ المُؤمن الَّذي يبصر رُشدَه[5]، و(أعمى) هنا: استعارة لعدم الفهم والانتفاع بما يبصرون[6].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (قطع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رحم).
(3) الخليل، العين: (صمم)، والأزهري، تهذيب اللغة: (صمم).
(4) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: (بصيرة في صم).
(5) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (عمي).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 113، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 242.

5) ﴿أَقْفَالُهَآ﴾: الأقفال جمع القُفل، والقُفل: ما يُغلَق به الباب مِمّا لَيسَ بكثيف ونَحوه، والجمع: أقفال، وأقفُل، وأنشدت أم القرمد:

ترى عينَيه ما في الكتاب وقلبه *** عَن الدّين أعمى موثق بقفول

وَقد أقفل الباب، وأقفل عليه، فانقفل، واقتفل، والنّون أعلى، ورجل مقفل اليدين، ومقتفل: لئيم، كلاهما على المثل[1]، ومعنى ﴿أَقْفَالُهَآ﴾: ما توصَد به من النِّفاق وغيره، فلا تنفتح للهدى، والعياذ بالله تعالى.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تُخاطب الآية الَّذين في قلوبهم مرضٌ، والمعنى: فهل عسيتم؛ إن أعرضتم عن القرآن، وفارقتم أحكامه أن تعودوا إلى جاهليَّتكم الأولى من الإفساد في الأرض وقتل بعضكم بعضًا، وتقطيع الأرحام بينكم؛ تناصرًا على الباطل، وتهالكًا على الدُّنيا.

تـــرْكُ أحـكـام الـدّيــن سـببُ الإفساد وتقطيع الأرحام

ويصحُّ أن يكون المعنى: فهل عسيتم إن توليتم أُمور النّاس، وتأمَّرتم عليهم أن تفسدوا في الأرض، وترجعوا إلى التَّناهب والقتل وقطع الأرحام ووأد البنات: كما كنتم في الجاهليَّة[2].

فإنَّ أولئك الَّذين خالفوا أمره الله قد استوجبوا اللَّعن والطَّرد من رحمته، فحرمهم الانتفاع بآيات كتابه وأحكامه[3]، فتدبَّروا القرآن الكريم، ففي تدبُّره شفاءٌ لأمراض القلوب، وجلاءٌ لأغشية الأبصار والبصائر، ومَن أعرضوا عن تدبُّرِه، فقد أُغلِقت قلوبهم بأقفال خاصَّةٍ بها، فـ "لا يدخل في قلوبهم الإيمان، ولا يخرج منها الكفر والشِّرك؛ لأنَّ الله سبحانه قد طبع عليها"[4].

(1) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (قفل).
(2) التفسير الوسيط، مجمع البحوث: 9/ 965.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 113.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 46.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوع الفاء ودلالتها:

معنى الحروف قائمٌ على توجيه الـرَّبـط بين الجمل

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ﴾؛ للتَّفريع فإنَّ "مقتضى تناسق النَّظم أنَّ هذا مفرَّع على قوله: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾؛ لأنَّه يُفهم منه أنَّه إذا عزم الأمر؛ تولَّوا عن القتال، وانكشف نفاقهم، فتكون إتمامًا لِما في الآية السّابقة من الإنباء بما سيكون من المنافقين يوم أحد"[1].

غرضُ الاستفهام وبلاغته:

صـوغُ الـخـبـر بـصـيـغـة الاسـتـفـهـام لتوبيخ المخاطَب وتـقـريـره على الصّواب

من أغراض صوغ الخبر استفهامًا في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: التَّحذير من أن يتورَّطوا في جريمة التَّولّي والإفساد في الأرض ومن تقطيع أرحامهم، كما أنَّ فيه معنى "التَّكذيب لما سيعتذرون به لانخذالهم؛ ولذلك جيء بـ (هل) الدّالَّة على التَّحقيق؛ لأنَّها في الاستفهام بمنزلة (قد) في الخبر.

فالمعنى: أفيتحقَّق إن تولَّيتم أنَّكم تفسدون في الأرض، وتقطعون أرحامكم، وأنتم تزعمون أنَّكم تولَّيتم إبقاءً على أنفسكم، وعلى ذوي قرابة أنسابكم، على نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ﴾ [البقرة: 246]، وهذا توبيخ كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ﴾ [البقرة: 85]، والمعنى: أنَّكم تقعون فيما زعمتم التَّفادي منه؛ وذلك بتأييد الكفر، وإحداث العداوة بينكم وبين قومكم من الأنصار"[2].

دلالةُ التَّعبير بالفعل (عسى):

مَـن يـفـرُّ من الـجـهـاد يـقـرب من الإفساد

(عسى) في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تحتمل معنى (لعل)، أي: لعلَّكم تفسدون في الأرض؛ إن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 111.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 111.

تولَّيتم بموجب نفاقكم، كما تحتمل معنى المقاربة، أي: يوشك أن يقع منكم الإفساد؛ إن تولَّيتم، وعلى المعنيين فيها تحذير من أن يؤول حالهم إلى ذلك.

بلاغةُ الالتفات من الغيبة للخطاب:

زجْـرُ المنافقين وتقريعهم أدعى لـلإحـجـامِ عن غيِّهم

التفت النَّظم الكريم من الحديث عن المنافقين في الآية السّابقة: ﴿فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾، إلى الحديث عنهم هنا، في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾؛ التفاتًا من الغيبة إلى الخطاب، وذلك الالتفات يحقِّق عليهم الخطيئة؛ إذ يستدعيهم للمثول، والمحاكمة إلى أنفسهم، كما جاء الالتفات هنا؛ تنبيهًا على تناهي الغضب الإلهيِّ، وبلوغه الغاية فيه[1]؛ وذلك أزجر لهم، وأبلغ في التَّوكيد، والتَّوبيخ والتَّقريع[2].

نكتةُ استعمال ﴿إن﴾ دون (إذا):

غـرض النَّـظـم تحذير المنافقين مـن الـتَّـولّي لا الإخـبـار عـن تولّيهم

﴿إن﴾ في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ شرطيَّة، وإيثار النَّظم الكريم التَّقييدَ بها دون (إذا)؛ لما في ﴿إن﴾ من معنى الاحتمال دون القطع، ونكتة ذلك دعوة رقيقة خفيَّةٌ إلى الحَذَر من الإعراض عن الدّين ومعاداته، وعن القتال والجهاد وكَراهته، ولفْتٌ إلى أنَّ ذلك ممّا ينبغي ألّا يكون إلّا على سبيل الافتراض، ولو قال: (إذا تولّيتم)؛ كأنَّه يُخبرهم بتولّيهم، وهو يُحذِّرهم منه.

كما أنَّ في استعمال ﴿إن﴾ دعوة إلى الحذر من بريق السُّلطان، والحذر من الالتهاء به عن الحقِّ؛ إذا كان المراد بالتَّولّي تولية أمور العباد، وصيرورة أمر الولاية إليهم.

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 239.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 325، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 46، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 238.

دلالةُ التَّعبير بمفردة التَّولّي:

ثراءُ دلالة المفردة القرآنيَّة المتَّسِق مع السّياق وجه إعجاز جليل

يحتمل الفعل في جملة ﴿تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ أن يكون معناه: صِرتم أولياء أمور البلاد والعباد، ويحتمل أن يكون بمعنى: أعرضتم عن قبول الدّين والإيمان بالله تعالى، واتِّباع رسوله ﷺ أو بمعنى: أعرضتم عن القتال[1]، الذي غَشيَتكُم مِن ذِكره - في السّورة المحكَمة - غِشْيَةٌ مثلُ غِشْيَةِ الموت، ففِعل التَّولّي يعطي تلك الدَّلالات دَفْعَةً.

وعلى كل المعاني فـ "صيغة التَّفعُّل في الفعل ﴿تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ إشارةٌ - مع نهاية الذَّمِّ - إلى أنَّ المُعرِضَ عن أمر الله تعالى معرِضٌ عمّا تَدْعوه الفطرةُ الأولى القويمة والعقلُ السَّديد إلى حسنه، فهو لا يُعرِض عنه إلّا بِمُجاهدةٍ منه لنفسه"[2].

توجيهُ القراءات القرآنيَّة:

تَنَوُّعُ القراءات القرآنيَّة يُثري الدَّلالات التَّركيبيَّة

قرأ رويس فعل: ﴿تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ بِضَمِّ التّاءِ وكَسْرِ اللّامِ ﴿تُوُلِّيتُمۡ﴾، وقَرَأ الباقونَ بِفَتحهنَّ[3]، وقراءة الجمهور واضحةٌ، وسبق بيانها، ومعنى القراءة الأخرى: حكَمَكم غيرُكم، وتولَّى أموركم، أي: "إن تولّاكم وُلّاةٌ ظلمةٌ، جُفاة، غَشَمَةٌ، ومشيتم تحت لوائهم، وأفسدتم بإفسادهم معهم، وقطعتم أرحامكم، والنَّبيُّ ﷺ لا يأمركم إلّا بالإصلاح، وصلة الأرحام، فلِمَ تتقاعدون عن القتال، وتتباعدون في الضَّلال؟"[4]، أو عسيتم - إن وُلّي عليكم غيركم - أن "تخرجوا عليهم في الفتنة، وتحاربوهم، وتقطِّعوا أرحامكم بالبَغْي والظُّلم والقتل"[5].

نكتةُ التَّعبير بأداة ﴿أَن﴾ والمضارع دون المصدر الصَّريح:

الإيماءُ إلى تجدُّدِ أحوال المفسدين في الأرضِ وتنوُّع أساليبهم

﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مصدريَّة، والمعنى:

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 213، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 46.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 240.
(3) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 374.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 55.
(5) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 46.

لعلَّكم أو قاربتم إنْ قُدِّر لكم التَّولّي أو التَّولية، الإفساد في الأرض، وجاءت أن المصدريَّة مع الفعل المضارع ﴿تُفۡسِدُواْ﴾ دون المصدر الصَّريح (الإفساد)؛ للإشارة إلى معنى التَّحذير الضِّمني في ﴿أَن﴾ مع الإيماء إلى تجدُّدِ الفساد؛ إن وقع، فإنَّ المفسدَ لا يتراجع عن إفساده في الأرض، بل يستمرُّ فيه، فإنَّ الفساد يتجدَّد شيئًا فشيئًا في نفس المفسد، وتتنوَّع أساليبه.

بلاغةُ التَّعبير بمفردة (الإفساد) مادَّة وصيغة:

الإفسادُ مستلزِمٌ للفساد من غير عكس

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بمفردة (الإفساد)، في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لما يَتَّسم به من بيانِ عموم الإضرار، كالإضرار بالدّين، وبالعباد والبلاد، والإفساد يُخرج الشَّيء الصّالح عن صلاحه واعتداله واستقامته، ويسلبه ميزة النَّفع، ويُتلفه، كما أنَّ الإفسادَ مرحلةٌ تاليةٌ للفساد، فالمفسِد فاسدٌ قبل أن يُفسَد، مختلٌّ قبل أن يُخَلَّ.

بلاغةُ حرف الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾:

الإفســـادُ في الأرضِ مكينٌ لا يزول بيُسرٍ

آثر النَّظم الكريم استعمال حرف الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾، في قوله تعالى: ﴿أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وهم إنَّما كانوا يفسدون على الأرض لا فيها، غير أنَّ النَّظم الكريم دَرَج على ذِكر الظَّرفيَّة ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، في أغلب مواضع وروده في القرآن الكريم؛ إذ ورد ذكر ذلك في نحو مئة وسبعين موضعًا، ولم يُذكر حرف الاستعلاء مع الأرض صراحةً (على الأرض)، إلّا في أربعة مواضع، ولها مقاماتها الخاصَّة، الجليَّة في سياقاتها.

وحرف الظَّرفيَّة يُقرِّر، ويُبيِّن أنَّهم إذا أفسدوا ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ فإنَّ إفسادهم مكين أليم، ممّا يعكس قوَّة الشَّرِّ المترتِّب على نفاقهم وتركهم الجهاد، كأنَّ إفسادهم يصل إلى باطن الأرض؛ بسببِ شرِّهم ومكرهم.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

(أل) في لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ هي العهديَّة، أي: الأرض الَّتي عهدتموها، ونعمتُم فيها، وتقلَّبتم في الخيرات الَّتي أودعها الله تعالى فيها، ومع أنَّ ذكر إفسادهم لا يكون إلّا ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ غير أنَّ في التَّذكير بها مزيد تعنيف وتبكيت؛ لأنَّهم يتمتَّعون فيها وبها وعليها، وقد يقصد بـ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ هنا الدُّنيا[1].

المنافقون يتنعَّمون بنعم الله، ويقابلونها بالفساد والإفساد

نوعُ الواو ودلالتها:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾ عاطفة لجملة: ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ﴾ على جملة: ﴿تُفۡسِدُواْ﴾، ومشرِكةٌ لها في النَّصب بـ ﴿أَن﴾، فهُم بنفاقهم قاربوا، وشارفوا أن يأتوا بالجريمتين معًا: جريمة الإفساد في الأرض، وجريمة تقطيع أرحامهم، أي: الجمع بين عموم الجُرم وخصوصه؛ لأنَّ الإفساد في الأرض يشمل تقطيع الأرحام، فهو من باب عطف الخاصِّ على العامِّ، وهذا أحد صور الإطناب، وغرضُه مضاعفة تقبيح النِّفاق، وتفظيع سببه في نفوس المنافقين، وغرْس بغض أهله في قلوب المؤمنين، وتنفيرهم منه ومن الوقوع في الجريمة الَّتي تجرُّ إليه.

عطفُ خصوصِ تقطيعِ الأرحامِ على عمومِ الإفساد

بلاغةُ استعمال مفردة التَّقطيع:

التَّقطيع أمر حِسّيٌّ، وهو إبانةُ جزءٍ من كلٍّ، والمقصود به هنا ترك البِرِّ والإحسان إلى الأهل والأقارب، وهي ضدُّ صلة الرَّحم، وقوله تعالى: ﴿أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾، أي: تعودوا إلى أمر الجاهليَّة في تقطيع الأرحام وإفساد علاقات القرابة، وبخاصَّة الَّتي مِن جهة الأمَّهات ذوات الأرحام، وذُكِرت الرَّحِم هنا للإغراء على البرِّ بالقرابة المباشِرة؛ لأنَّ العلاقات مِن جهتها بين النّاس أقوى، والتَّخويف من إيذائها أفعلُ في النُّفوس.

يعالج الذِّكرُ الحكيم اختلالَ النُّفوس بأشدِّ المؤثِّرات فيها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 206.

دلالة صيغة فعَّل ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ﴾:

تقطيعُ الأرحامِ إذا وقع؛ فوقْعُه شديدٌ أليم

للمضارعة في جملة: ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾ دلالة فاعلة في هذا المقام؛ إذ تستحضر ما يُتوقَّع ممَّن يتولّى عن القتال مستقبلًا، فيُقيم صورته أمام الذِّهن، وكأنَّه يُمارس التَّقطيع الآن، مع ما تفيده المضارعة من تجديد المتهرِّب من القتال من تقطيع الأرحام، وتنويع أساليه، واستمراره على ذلك لا يوقفه شيء.

وتشديد عين الفعل في ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ﴾ يدلُّ على أنَّ قطع المنافقين المعرضين عن القتال في سبيل الله تعالى يكون "تقطعيًا عظيمًا شديدًا كثيرًا منتشرًا كبيرًا"[1]، ففيه كناية عن فظاعة الجريمة؛ إذ لا يكتفون بقطع الرَّحم، بل يبالغون في القطع حتّى يصير تقطيعًا، وذلك كلُّه ممّا يضاعف على المنافق وضعيف الإيمان التَّرهيبَ من التَّقاعد عن الجهاد، ويأخذ بيديه إلى التَّوبة والامتثال لأمر الله تعالى؛ إذا عزم أمره.

توجيهُ القراءات القرآنيَّة في ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ﴾:

قطْعُ الرَّحم قليله وكثيره من مظاهر الإفسادِ في الأرض

قرأ يعقوب بفتح التّاء، وإسكان القاف وفتح الطّاء مخفَّفة: ﴿وَتَقۡطَعُواْ﴾، وقرأ الباقون بضمِّ التاء وفتح القاف وكسر الطّاء مشدَّدة: ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ﴾[2]، وكلاهما بمعنى القطع، غير أنَّ قراءة الجمهور دالَّة على التَّكثير، وفي ذلك دلالة على التَّحذير من قطع الأرحام وتقطيعها، أي: من قليله وكثيره، وكذلك التَّرهيب من قطع المسلم رحمه، وتقطيعه أرحام النّاس بعضهم بعضًا.

دلالةُ التَّعبير بمفردة الرَّحِم:

الرَّحم من الرَّحمة؛ فمن وصلها؛ فاز بالرَّحمة، وإلّا فالشَّقاء

في التَّعبير بمفردة (الرَّحِم) تفظيعٌ لجريمة ترك الجهاد، الَّذي يؤول بالمنافقين وضعاف الإيمان إلى ارتكاب أشدِّ الإفساد، وهو

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 241.
(2) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 374.

تقطيع الأرحام؛ إذ التَّذكير بالرَّحم يحمل على الشَّفقة، والرِّقَّة، والعطف، والرَّأفة؛ لأنَّ (الرَّحم) مأخوذة من الرَّحمة.

والرَّحم علاقة القرابة، وأمارة قوَّة الآصرة بين النّاس، فإذا قطَّعها المنافق بإعراضه عن القتال؛ كان ذلك منه دليلًا على سواد قلبه، وطمس نفسه، وسُمّيت رحم الأنثى رحمًا من هذا - أي: من القرابة - لأنَّ منها ما يُرحَم، ويُرَقُّ له مِن ولَدٍ[1].

ففي "اختصاص ذوي الأرحام بالذِّكر هنا، هو إشارة إلى أنَّ هذا الَّذي تولّى، وأعرض عن الإيمان بالله، لا يُرجى منه خير لإنسان، ولو كان فيه خير يُرجى؛ لكان ذلك في أهله، ولما قطع صلة الرَّحم بينه وبينهم"[2].

غرضُ جمع لفظ ﴿أَرْحَامَكُمْ﴾ ودلالته:

جُمِع لفظُ ﴿أَرْحَامَكُمْ﴾؛ ليُبيِّن مدى إجرام المنافقين؛ إذ إنَّهم لا يَروي صدى نفاقهم تقطيعُ رحمٍ واحد أو رحِمَيْن من أرحامهم حتّى يُقَطِّعوا أرحامهم جميعها، فيقتلوا ذوي قراباتهم؛ معاداةً للدّين، وكيدًا له، وانتقامًا ممَّن يعتنقه، ويؤمن به.

الإيماءُ إلى وجوبِ صلةِ جميعِ الأرحام

وفي ذلك بمفهوم المخالفة تحتُّم صلة الرَّحم كلِّها، قريبِها وبعيدها، وأنَّ العبد بقدر ما ينهض للجهاد والقتال - امتثالًا لأمر أولي الأمر حين يعزم الأمر - يوفَّق إلى صلة الأرحام الأقربِ فالأبعدِ منه، وبقدر نُكولِه عن الجهاد يكون تقطيعه الأرحام بحسب رتبتها كذلك.

دلالةُ إضافةِ لفظ الأرحام إلى الضَّمير:

في إضافة لفظ (أرحام) إلى ضمير جماعة المنافقين في قوله تعالى: ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾ استرحامٌ لهؤلاء المنافقين واسترآفٌ واستعطاف لهم على ذوي أرحامهم، فإنَّهم لا رحِم لهم إلّا من

الأرحام أحقُّ بالوصل والإكرام، فالإنسان مِن قِبَلِها، وإليها ينتمي

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رحم).
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 358.

قِبَلها؛ لعلَّهم يتوبون من تهاونهم في أمر الجهاد، ويلبّون داعيه؛ إذا دعاهم، كما أنَّه في هذه الإضافة دليلُ بَشاعة النِّفاق وما يتسبَّب عنه من النُّكوص عن القتال في سبيل الله تعالى، وأنَّهم حينئذٍ لا يتورَّعون عن خُلق الإفساد الذَّميم مهما بَلغ بهم مِن الانحطاط الأخلاقي، حتّى يصل بهم ذلك النِّفاق والنُّكوص إلى حدِّ تقطيع أرحامهم هم الَّتي من قِبلها أتوا، وإليها ينتمون، فهي الأحقُّ بالوصل والإكرام لا بتقطيعها والإساءة إليها.

بلاغةُ الاستعارة في لفظ التَّقطيع:

تجسيدُ جريمة الإســـاءة إلى الأرحـام بصورةِ محسوسٍ يُمزَّق بآلةٍ حادَّة

إذا كان القطع في المحسوسات؛ إذ هو: إبانةُ بَعْضِ أجزاء الجِرْم مِن بعضٍ فَصْلًا[1]، فإنَّ التَّعبير - عن الإساءة إلى ذوي الأرحام، وإفساد ذات البين فيما يتعلَّق بهم، بالتَّقطيع والقطع - استعارة، فقد شُبِّه ترك الأرحام وعدم وصلهم والإساءة إليهم - وهو أمرٌ معنويٌّ - بالتَّقطيع، وهو أمر حسيٌّ، وصُرِّح بالمشبَّه به على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، وسرُّ التَّعبير بها تجسيد الجريمة المعنويَّة بشيء محسوس يُمزَّق بسكّين أو آلة حادَّة، وإقامة هذه الصّورة في الذِّهن تبشِّع تلك الإساءة، وتحذِّر من فعلها، وترهِّب المنافقين من التَّولّي والإعراض عن القتال الَّذي فرضه عليهم بناء على طلبهم إيّاه، وتطلُّعهم وقت السِّلم إليه.

علَّة فصل قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ عمّا قبله:

فصلت جملة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ عمّا قبلها للاستئناف البيانيِّ؛ إذ تُجيب عن سؤال يجول في النَّفسِ عن مصير المنافقين، والموقف منهم، فيأتي الجواب بما تضمَّنته الجملة.

تعيينُ مرجع الإشارة بـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

الإشارة في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾ ترجع إلى الَّذين

(1) ابن منظور، لسان العرب: (قطع).

أفسدوا في الأرض، وقطعوا أرحامهم[1]، فأخبر الله عنهم بحلول لعنته عليهم، وتوعَّدهم بِصَمَمِ آذان العقول وعَمَى إبصار القلوب، ويرى ابن عاشور أنَّ "الإشارة إلى الَّذين في قلوبهم مرض على أسلوب قوله آنفًا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [محمد ﷺ: 16]، ولا يصحُّ أن تكون الإشارة إلى ما يؤخذ من قوله: ﴿أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾؛ لأنَّ ذلك لا يستوجب اللَّعنة، ولا أنَّ مرتكبيه بمنزلة الصُّمِّ"[2].

من أعرض عن أوامر الله حلَّ به غضبه

نكتة الإشارة بأداة البعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

في التَّعبير باسم الإشارة الموضوعة للبعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إيحاء بإبعادهم عن ساحة الطُّهر والرَّحمة والتَّوفيق؛ فإنَّهم يضمرون الكفر، ويظهرون الإسلام، فمَضرَّتُهم على الدّين والعباد والبلاد عظيمةٌ حتَّى على أقرب النّاس إليهم، كما سبق بيان لطائف الإضافة في ﴿أَرۡحَامَكُمۡ﴾.

إبعادُ المنافقين عن ميدان الفضيلة فضيلة

لطيفةُ التَّعبير بالموصول:

التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مِن عناصر التَّشويق إلى ما وراءه من كواشف إبهامه؛ لأنَّه فقير الدَّلالة يطلب ما يَسُدُّ فَقْر دلالته، فإذا جاءت جملة الصِّلة؛ تمكَّنت في النَّفس فضل تمكُّن، وصارت هي الأخرى عُنصر تشويقٍ، وتَطلب ما وراءها من تفاصيلِ قيودها ومتعلِّقاتها، ثم يَطلب كلُّ ذلك ما وراءه من الخبر، الَّذي زاد الشَّوق إليه، فيكون في لذَّة ما حُصِّل بعد طلبٍ، فعند مجيءِ الصِّلة ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ يتمكَّن الإخبار عنهم باللَّعن، وعدم الانتفاع بمواعظ القرآن الكريم.

التَّشويق للمعاني يجعلها تقع في النَّفس موقع القبول

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 215، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 788.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 112.

دلالةُ المضيِّ في فعل ﴿لَعَنَهُمُ﴾:

صَوْغُ الفعل ماضيًا في جملة: ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ يقطع بتحقُّق اللَّعْن لِمَن آثر الكفر والنِّفاق على الإيمان والإخلاص، ففيه بالغ التَّهديد وكبير الوعيد.

نوع الفاء ودلالتها:

اللَّعن سبيلُ كلِّ هـلاكٍ وطـريـقُ كلِّ خسارة

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ للتَّفريع؛ إذ يتفرَّع بها إصمامُه تعالى المنافقين على لعنه إيّاهم، وهي تفيد أنَّ الإصمام مترتِّب على اللَّعن، ومتسبِّب عنه؛ تأكيدًا على خطورة لعنه تعالى، وأنَّه سبيل الهلاك والضَّلال البعيد، فلا سمع للملعون يَنفعُه، ولا بصرَ له يَهديه.

بلاغةُ الاستعارةِ في مفردة الصَّمَم:

النِّـفـاق سـدٌّ يـحـول دون وصـول الـكـلام إلى القلب

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة الصَّمَم في قوله: ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾، وهي انسدادُ منافذ السَّمع، وهو أشدُّ من الطَّرش[1]، فالمنافقون وإن كان لديهم آذان تسمع، وأعين تبصر، لكنَّها "لا تسمع سماع إذعان وقبول، وإنَّما تسمع سماعًا تقوم به حُجَّةُ الله تعالى عليها"[2]، فحين عطَّلوا أسماعهم وأبصارهم عن التَّدبُّر والتَّفكُّر؛ صاروا بمنزلة الفاقدين لتلك الحواسِّ[3].

وقوله: ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ فيه استعارة؛ إذ شُبِّه عدمُ الانتفاع بالمسموعات مِن آيات القرآن ومواعظ النَّبيِّ ﷺ[4] بالصَّمم، وصُرِّح بالمشبَّه به على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة؛ إذ إنَّ عدم الاستجابة للحقِّ هو صممٌ عن قبولِ الحقِّ.

(1) ابن هبيرة، الإفصاح عن معاني الصحاح: 3/ 131.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 788.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 239.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 113.

نوعُ الواو ودلالتها:

من عطَّل نِعم الله تعالى؛ حُرِم خيرها

(الواو) في جملة ﴿وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ واو العطف؛ إذ تجمع على هؤلاء الملعونين حنظلتين مريرتين من شجرةِ اللَّعن، وهما صَمَم الآذان وعَمَى الأبصار، أي: إنَّ منافذ الخير إلى قلوبهم قد سُدَّت، فلا يسمعون خيرًا، ولا يبصرون خيرًا، فبرغم أنَّ الله تعالى وهبهم نعمة الإسماع والإبصار، لكنَّهم حُرِموا الانتفاع بها، فكأنَّهم حُرِموها من الأصل.

بلاغةُ الاستعارة في لفظ العمى:

ليس سماعُ المنافقين سماعَ ادِّكار، ولا إبصارهم إبصارَ اعتبار

العَمَى فقدان نعمة البصر بانطماس نور العينين، وليس هذا بالخطير الَّذي يُتوَعَّد به الملعون، فكثير من المؤمنين الصّادقين عميان الأبصار، ومع ذلك وعَدَهم الله تعالى بالرِّضوان والجنان، كما ورد في الحديث القدسيِّ: «إنَّ الله قالَ: إذا ابتَلَيتُ عَبدي بِحَبيبَتَيْهِ، فَصَبَرَ؛ عَوَّضتُهُ مِنهُما الجَنَّةَ»[1]؛ ولذلك شاع عند عموم المسلمين أنَّ (العَمَى عَمَى القلوب)، وصدقوا.

أمّا العمى المتوعَّد به المنافقون؛ فهو عمى البصيرة، والبصيرة من البصر بسبيل، فكلاهما أداة رؤية، الأولى رؤية القلب، والثّانية رؤية العينين، والمنافق وإن تمتَّع برؤية العين غير أنَّه حرم رؤية القلب الَّتي عليها تُناطُ السَّعادة؛ وبفقدانها يسلك طريق الشَّقاء.

قال ابن عاشور: "استُعير العَمى هنا؛ لِعدم الفهم على طريقة التَّمثيل؛ لأنَّ حال الأعمى أن يكون مضطربًا فيما يُحيط به، لا يدري نافعَه من ضارّه إلّا بمعونة مَن يُرشده، وكثُر أن يقال: أعمى الله بصره، مرادًا به أنَّه لم يَهدِه"[2]، "فليس سماعهم سماع ادِّكار، ولا إبصارهم إبصار اعتبار، فلا سماع لهم ولا إبصار"[3].

(1) البخاري، صحيح البخاري، كتاب المرضى، باب: فضل من ذهب بصرُهُ: 5/ 2140، برقم: (2359).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 113.
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 243.

بلاغةُ الاستفهام وغرضه:

تدبُّرُ القرآن أصلٌ في الاهتداءِ الموصل إلى الإيمان

(الهمزة) في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ همزة الاستفهام، وهي خارجة عن معنى الاستفهام الحقيقيِّ من طلب الفهم، فالاستفهام هنا "تعجيب من سوء علمهم بالقرآن، ومن إعراضهم عن سماعه"[1]، وكذلك فيه توقيفٌ وتوبيخ، و"للتَّسجيل عليهم بأنَّ قلوبَهم مقفلة، لا يُتوصَّل إليها ذكر"[2]، مع ما فيه من معنى الإنكار عليهم لعدم تدبُّر القرآن.

تقديرُ المعطوفِ عليه بالفاء:

الإعراضُ عن القرآن يُقابله التَّدبُّر

الفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ للعطف على جملة محذوفة[3]، أي: أيُعرِضون عن القرآن، فلا يتدبَّرونه؟[4] ولطيفة حذفها عدم التَّصريح بالإعراض عن القرآن الكريم؛ لأنَّه ليس بمنزلة أن يُعرَض عنه؛ فلم يصرِّح بما يحذِّر منه، ويدعو إلى خلافه.

توجيهُ معنى حرف النَّفي:

نفيُ التَّدبُّر بيانٌ لإثباتِ الإعراض

دلَّ حرف (لا) على النَّفي، ولمّا كان الاستفهام دالًّا على الإنكارِ الَّذي فيه معنى النَّفي؛ أصبح مثبتًا؛ لأنَّ نفي النَّفي إثبات له، فكأنَّه قيل: هل يُجدِّدون التَّدبُّر تجديدًا مستمرًا لِتَرِقَّ قلوبُهم به، وتنير بصائرهم له، فيكفّوا عن الإفساد والتَّقطيع[5]، ويتَّضح معنى النَّفي على تقدير المحذوف، والمعنى: أيُعرضون، فلا يتدبَّرون، فيكون معنى نفي التَّدبُّر بيانًا لمعنى إثبات الإعراض، فيقع الاستفهام عليهما.

بلاغةُ استعمال مفردة التَّدبُّر:

التَّدبُّر خاصٌّ بالآيات القرآنيَّة والتَّفكُّر بالآيات الكونيَّة، وكلاهما دليل موصل للحقِّ

التَّدبُّر هو التَّفكُّر الكاشف عن عواقب الأمور وأدبارها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 113.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 326.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 239.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/ 276.
(5) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 243.

وعواقبها[1]، و"التَّفهُّم في دبر الأمر - أي: ما يخفى منه - وهو مشتقٌّ من دُبُر الشَّيء، أي: خلفه"[2]، وقد خُصَّ استعمال التَّدبُّر في الآيات القرآنيَّة، بخلاف التَّفكُّر، فخُصَّ في الآيات الكونيَّة، واستُعمل التَّدبُّر في شأن الآيات القرآنيَّة لما فيه من معنى التَّدقيق في عواقب الأمور وأدبارها، أي: مآلاتها، فهي تحتاج إلى مزيد عقلٍ، بخلاف التَّفكُّر؛ فهو بحاجة إلى سريان الفكر في الكون الظّاهر، دون النَّظر في عواقبه؛ إذ الكون هو الدَّليل العقليُّ الموصل إلى تصحيح الاعتقاد، والقرآن هو الدَّليل النَّقليُّ الموصل إلى تصحيح المسار العقديِّ.

غرضُ التَّعبير بصيغة المضارع:

يزداد تعلُّقُ المتدبِّر بالكتاب المجيد؛ كلَّما ازداد تدبُّرًا فيه

المضارعة في فعل التَّدَبُّر ﴿يَتَدَبَّرُونَ﴾ تدعو إلى الحثِّ على التَّدبُّر النَّشِط الواعي، والمتجدِّد بلا خمول، فالمعنى: "هل يُجدِّدون التَّدبُّر تجديدًا مستمرًا لِتَرِقَّ قلوبُهم به، وتنير بصائرهم له، فيكفّوا عن الإفساد والتَّقطيع"[3]، فهي دعوة للتَّدبُّر في الحال والاستقبال، ولو أتى بالماضي؛ لكان إنكارًا عليهم لما كان في ماضي الزَّمان فحسب، والآية جاءت لتجمع بين الأمرين: الإنكار عليهم فيما مضى، والتَّحضيض لما سيأتي.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾:

القرآنُ عَلَمٌ بالغلبة على الكتاب المنزل على خاتم النَّبيِّين

(أل) في ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ عهديَّة؛ إذ تأخذ بالأذهان إلى "كلام الله تعالى، المنزَّل على نبيِّنا محمَّد ﷺ المتعبَّد بتلاوته، لفظُه ومعناه من الله سبحانه، المكتوب في المصاحف المنقول بالتَّواتُر"[4]، فالقرآن صار خاصًّا بكتاب الله تعالى المنزل على خاتم النَّبيّين ﷺ وهو عَلَمٌ بالغلبةِ، وذلك هو الجدير بقضاء الأوقات وإفناء الأعمار في تدبُّره،

(1) الهروي، الغريبين في القرآن والحديث: 2/ 615.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 113.
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 243.
(4) الداني، التيسير في القراءات السبع، ص: 17.

وتجديد النَّظر فيه مرَّة بعد مرَّة وكرَّة تلو كرَّة، واستلهام إيحاءاته، والفوز ببركاته.

معنى ﴿أَمْ﴾ ودلالتها:

﴿أَمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ هي (أم) المنقطعة، وهي بمعنى (بل) وألف الاستفهام[1]، أي: "بل أعلى قلوب أقفالها؟ فهُم لا يفهمون، ولا يعقلون"[2].

بلاغةُ حرف الاستعلاء:

بيانُ مُكنة النِّفاق من القلوب

﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ حرف استعلاء، وهو هنا استعلاء مجازيٌّ، والمعنى: أنَّ النِّفاق سيطر على القلوب، وصرَّف قيادها إلى الضَّلال والكفر فعلًا عليها، وتمكَّن منها، وتسلَّط عليها، فهو بيانٌ لتمكُّن النِّفاق من القلوب، بإقفال دخول شيء من النَّقل أو العقل.

بلاغةُ الاستعارة المكنيَّة:

النِّفاقُ يُغلِق القلوب، فلا يدخلها الإيمان

شبَّه النَّظم الكريم القلوب في قوله تعالى: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ بالصَّناديق، دالًّا على ذلك التَّشبيه بذكر ما هو مختصٌّ بالصَّناديق من الأقفال[3]، على سبيل الاستعارة المكنيَّة؛ إذ شُبِّهت القلوب في عدم إدراكها المعاني بالأبواب أو الصَّناديق المغلقة، والأقفال تخييلٌ، والمراد: التَّسجيل عليهم بأنَّ قلوبَهم مغلقة، لا يدخلها الإيمان، ولا يخرج منها الكفر والنِّفاق[4].

لطيفةُ التَّعبيرِ بالقلوب دون الأفئدة:

لا ثمرةَ لقلبٍ محروم من الرَّزانة والصَّبر على التَّدبُّر والتَّفكُّر

استعمل النَّظم الكريم مفردة القلوب في قوله تعالى: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ دون الأفئدة؛ وذلك لأنَّ القلب هو الاسم العلم، ولا

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 119.
(2) خان، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 71.
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 243.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 239.

يُعدل عن الاسم العَلَم إلى غيره إلّا لوجود نكتة، والفؤاد يُستعمل في مواضع توقد القلب، مع ما في استعمال القلب من لطيفة الإيحاء إلى أنَّ قلوب المنافقين المكذِّبين مذبذبة متقلِّبة لا رزانة فيها، ولا رسوخ لها في ميدان النَّظر والتَّدبُّر، وأنَّها ما لم تثبُت، وتصبر على التَّدبُّر؛ لم تنتفع به.

دلالة جمع لفظ ﴿قُلُوبٍ﴾:

جُمِع لفظ ﴿قُلُوبٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ باعتبار جموع المنافقين المخبَر عنهم، وباعتبارِ اختلاف درجات نفاقهم، فإنَّ المنافقين لم يكونوا على درجة واحدة، ونُكِّر لفظ ﴿قُلُوبٍ﴾؛ للدَّلالة على "التَّنويع أو التَّبعيض، أي: على نوع من القلوب أقفال، والمعنى: بل بعض القلوب عليها أقفال، وهذا من التَّعريض بأنَّ قلوبهم من هذا النَّوع، لأنَّ إثبات هذا النَّوع من القلوب في أثناء التَّعجيب من عدم تدبُّر هؤلاء القرآن يدلُّ بدلالة الالتزام على أنَّ قلوب هؤلاء من هذا النَّوع من القلوب ذوات الأقفال، فكون قلوبهم من هذا النَّوع مستفاد من الإضراب الانتقاليِّ في حكاية أحوالهم"[1].

المنافقون على درجاتٍ متباينة، وقلوبهم في غفلة عظيمة

وفي تنكير ﴿قُلُوبٍ﴾ كذلك تهويل لقساوتها وجهالتها، فهي قلوب منكَرة، لا يُعْرَف مثل حالها، ولا يُقادَر في الغفلة والجمود قَدْرُها.

نكتةُ إضافة الأقفال إلى الضَّمير دون القلوب:

في تحاشي إضافة القلوب إلى ضمير المنافقين في قوله تعالى: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾، دون أن يقول: (على قلوبهم أقفال) تنبيهٌ إلى "عَدم نفْعِها إيّاهم"[2]، فهي في الأصل قلوبهم الَّتي ينبغي أن يتدبَّروا بها، وأن ينتفعوا بها من آيات الكتاب البيِّنات، لكنَّهم لم يفعلوا.

القلبُ سلطان الإنسان، فهو الإنسان مختصَرًا، وقلب المنافق لا ينفعه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 114.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 56.

وإضافة الأقفال إلى ضمير القلوب في ﴿أَقْفَالُهَآ﴾ "تنبيهٌ على أنَّ المراد بها ما هو للقلوب بمنزلة الأقفال للأبواب؛ إذ ليست للقلوب أقفال حقيقيَّة"[1]، و"إشارةٌ إلى أنَّ لهذه القلوب أقفالًا خاصَّة بها، مقدَّرة بقدرها، فلكلِّ قلب قفلُه الَّذي يلائمه"[2]، فهي أقفال مخصوصة بها، مناسبة لحالها من القسوة والفظاظة، غير مجانسة لسائر الأقفال المعهودة[3].

دلالةُ التَّعبير بلفظ ﴿أَقْفَالُهَآ﴾:

قلوب الكفّار مقفَلة؛ فلا الكفر يُغادرها، ولا الإيمان يدخلها

آثر النَّظمُ الكريم استعمال مفردة (أقفال)؛ ليدلَّ على شدَّة إحكام انغلاق القلوب عن التَّأثُّر بسماع الحقِّ ورؤية دلائله، وأنَّ هذه القلوب مغلقة إغلاقًا تامًّا لا مواربة فيه، بحيث "لا يداخلها زاجر التَّنبيه، ولا ينبسط عليها شعاع العلم، فلا يحصل لهم فهمُ الخطاب، فالباب إذا كان مقفلًا، فكما لا يدخل فيه شيءٌ؛ لا يخرج منه شيء، كذلك قلوب الكفّار مقفَلة، فلا الكفر الَّذي فيها يخرج، ولا الإيمان الَّذي هم يُدعَوْن إليه يدخل في قلوبهم"[4].

فائدة جمع لفظ (أقفال):

جمع لفظ (أقفال) في قوله تعالى: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾؛ لترشيح الصّورة، ببيان كثرة الموانع وتراكمها، فهي أقفالٌ كثيرة مانعةٌ من الهدايةِ، فهناك أقفال الكِبر والغرور والعناد والطُّغيان والجبروت وحبِّ المال.

بلاغةُ الاستعارة في لفظ ﴿أَقْفَالُهَآ﴾:

تشبيهُ أسباب الإعراض بالأقفال؛ لبيان مُكنة الامتناع عن تلقّي الوحي

جاء التَّعبير عن أسباب انسداد قلوب المنافقين بالأقفال، في قوله تعالى: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾؛ إذ شُبِّهت أسباب الانسداد

(1) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 127.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 361.
(3) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 966.
(4) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 413.

بالأقفال، على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة الأصليَّة، وهو من تشبيه المعنويِّ بالحسّيِّ؛ لتشخيص المعنويّات وبيان تمكُّنها من أصحابها، ونكتة الاستعارة المبالغة في بيان تأثير تلك الموانع الحائلة دون دخول الهُدى والإيمان إلى القلوب وخروج النِّفاق والكفر منها، ووراء تلك الصورة كنايةٌ عن تمام الانسداد.

بلاغةُ فنِّ الاحتباك:

الاحتباك يحقِّق للتَّركيب التَّواثُق والالـتـئـام؛ بحيث يوضع في النَّفس وضعًا واحدًا

في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ احتباك بديعٌ؛ إذ "ذُكِر التَّدبُّر أوَّلًا دليلًا على ضدِّه ثانيًا، والأقفال ثانيًا دليلًا على ضدِّها أوَّلًا"[1]، وتقدير الاحتباك: أفلا يتدبَّرون القرآن بقلوبٍ واعية منفتحة، أم على قلوب أقفالها، فهي معرضة عن التَّدبُّر، "وسِرُّه أنَّه ذَكر نتيجة الخير الكافلة للسَّعادة أوَّلًا، وسببَ الشَّرِّ الجامع للشَّقاوة ثانيًا"[2]، فسببُ السَّعادة التَّدبُّر في القرآن، وسبب الشَّقاوة العناد بإقفال مقفلات القلوب، وهذا الاحتباك حقَّق للتَّركيب تواثقه والتئامه؛ إذ يضعه في النَّفس وضعًا واحدًا؛ وكأنَّ الآية كلَّها كلمة واحدة.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التَّولّي والإعراض والصَّدُّ:

التَّولّي والإعراض مدابرة الحقِّ، والصَّدُّ عدولٌ مع قِلًى

المتولّي والمعرض يشتركان في ترك السُّلوك القويم، إلّا أنَّ المعرض أسوأ حالًا؛ لأنَّ المتولّي متى ندِم؛ سهُل عليه الرُّجوع، والمعرض يحتاج إلى طلب جديد، وغايةُ الذَّمِّ الجمعُ بينهما، أمّا الصَّدُّ؛ فهو العدول عن الشَّيء عن قِلًى[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 244.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 244.
(3) ابن حميد، نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم: 9/ 3913.

القلب والفؤاد:

القلب الاسمُ العلم، والفؤاد باعتبار تفؤُّده وتوقُّده وكونه محلًّا للمشاعر والانفعالات

سُمّي القلبُ قلبًا؛ لكثرة تقلُّبه[1] وقابليَّته للتَّغيُّر، فالطَّبع فيه عدم الثَّبات، وهو اسم علم على هذه المضغة في الجسد، وهو أعمُّ في الاعتبارات من غيره، والفؤاد يُطلق على ما يُطلق عليه القلب، لكن باعتبار معنى التَّفؤُّد فيه، أي: الحرارة والتَّوقُّد، يقال: فَأَدْتُ اللَّحْمَ: شَوَيْتُهُ، وهَذا فَئِيدٌ، أي: مَشويٌّ، الفُؤادُ، سُمّيَ بذلكَ لِحَرارَته[2]، وعلى هذا كان التَّعبير به في قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ [القصص: 10]؛ لأنَّ قلبها كان متوقِّدًا محترقًا على وليدها، ولذلك قال بعده: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: 10]، أي: ثبَّتنا قلبها؛ كي لا يتقلَّب بها إلى مكروه، فهنا أُطلِقَ كلٌّ مِن الفؤاد والقلب على نفس الشَّيء وذاته، ولكن بالاعتبارين المذكورين.

(1) الراغب، المفردات: (قلب).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فأد).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والخمسون،
سورة محمَّد من الآية 07 إلى سورة الحُجُرَات الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والخمسون، سورة محمَّد من الآية 07 إلى سورة الحُجُرَات الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 56 ، 802 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-642-29-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 56 : المجلد السادس والخمسون، سورة محمَّد من الآية 07 إلى سورة الحُجُرَات الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-642-29-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9075646 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"